



الغارة الروسية التي ذهب ضحيتها زهران علوش تؤكد السياسة الواضحة لموسكو. تؤكيد ما لا يحتاج إلى تأكيد: لا تريد الاستماع إلى الآخرين، أو أخذ موافقهم بعين الاعتبار. ولا انتظار التفاهم على «لائحة الحركات الإرهابية» التي وضعها الأردن. وكانت أبدت سلفاً اعتراضها على وجود ممثلين لفصائل عسكرية في مؤتمر الرياض للمعارضة. وتتجهد لتغيير نتائج المؤتمر بضم معارضين بديلين منهم غابوا عنه قريبين منها ومن النظام. بودها تكريس هؤلاء.

وإذا لم تستطع بالدبلوماسية وبالقوة لشطب من لا يروق لها جسدياً. القراءة السياسية للغارة ومؤداها هما الأهم. قائد «جيش الإسلام» كان رقماً صعباً في الميدان العسكري، في دمشق وريفها خصوصاً. لكنه على المستوى الشخصي كان مثار جدل واختلاف. هذا ما حفلت به سابقاً مواقف لقوى معارضة. وجه إليه كثيرون انتقادات، سواء لطريقة إدارته للقتال وتحويل مواطنين دروعاً بشرية. أو لموافقه من الديموقراطية والتعدديـة. أو لطريقة إدارته شؤون الناس ومعيشتهم وإغاثتهم في مناطق سيطرة عسكـرة. واتهـموه بالتشدد والتزمـت وباعتقال عدد من النشـطاء. وقامت في وجهـه تظاهرـات، على رغم أنه قاتـل تنظـيم «الدولـة الإـسلامـية». حتى أن بعض أصدـقاء المـعارـضـة، محلـيين وإـقـليمـيين، كانوا يـشعـرون بالـحرـجـ حـيـالـ «اعـتدـالـهـ».

وتردـ أن مـحاـولاتـ بـذـلتـ ولم تـتوـقفـ سـعـيـاـ إـلـىـ إـبعـادـهـ عنـ الصـورـةـ منـ أـجـلـ الدـفـعـ بـإـشـراكـ مـمـثـليـ قـوـاتـهـ فيـ «ـجـنـيفـ 3ـ»ـ،ـ بـعـدـماـ شـارـكـواـ فـيـ اـجـتمـاعـاتـ الـعـاصـمـةـ السـعـوـدـيـةـ فـيـ التـاسـعـ وـالـعاـشـرـ مـنـ الشـهـرـ الجـارـيـ.ـ نـتـيـجةـ الغـارـةـ الرـوـسـيـةـ عـلـىـ اـجـتمـاعـ قـادـةـ «ـجـيشـ إـسـلامـ»ـ لـيـسـ هـدـفـهاـ عـلوـشـ فـحـسبـ.ـ هـدـفـهاـ إـحـرـاجـ هـذـاـ جـيـشـ وـآخـرـينـ إـلـخـراجـهـمـ.ـ هـيـ تـأـكـيدـ عـلـىـ أـنـ مـوـسـكـوـ مـصـمـمـةـ عـلـىـ لـائـحتـهـ الـخـاصـةـ بـالـحـرـكـاتـ إـلـيـرـهـابـيـةـ.ـ وـمـصـمـمـةـ عـلـىـ تـحـدـيدـ الـوـفـدـ الـمـفـاـوضـ لـلـنـظـامـ،ـ وـعـلـىـ رـسـمـ صـورـةـ التـسـوـيـةـ السـيـاسـيـةـ فـيـ سـورـيـةـ.ـ وـالـمـفـارـقـةـ هـنـاـ أـنـ الغـارـةـ الرـوـسـيـةـ اـسـتـهـدـفـتـ زـهـرـانـ عـلوـشـ الذـيـ وـاجـهـ «ـدـاعـشـ»ـ وـطـرـدـهـاـ مـنـ غـوـطةـ دـمـشـقـ،ـ فـيـمـاـ قـوـاتـ النـظـامـ تـفـاوـضـ عـلـىـ تـفـاهـمـ يـسـمـحـ لـمـقـاتـلـيـ «ـتـنـظـيمـ الـدـولـةـ»ـ إـلـيـرـهـابـيـ بـالـخـرـوجـ «ـآـمـنـيـنـ»ـ مـنـ جـنـوبـ الـعـاصـمـةـ

إلى الرقة وريف حلب. كما يسمح لآخرين من «جبهة النصرة» بالتجمّع في درعاً تمهيداً لنقلهم إلى منطقة إدلب! طبعاً لم يكن الأمر يحتاج إلى هذه المفارقة لتكرار ما ي قوله الأميركيون والأوروبيون والمعارضة. وهو أن الحملة الروسية لم تستهدف حتى الآن سوى الفصائل المعتدلة. والهدف واضح لا لبس فيه، على رغم الغموض الذي يكتنف ببانيه وبيننا والقرار الأخير لمجلس الأمن الرقم 2254. لا يمكن موسكو الدفع برؤيتها الخاصة للتسوية من دون التمهيد ميدانياً بإزاحة ما تعتقد بأنه سيشكل عرقلة وعقبات أمام هذه التسوية.

ليس غموضاً أن روسيا تدخلت ميدانياً في سورية من أجل حماية مصالحها الجيوسياسية والاقتصادية المتعلقة بمشاريع الطاقة والغاز، من الخليج أو من شرق المتوسط، والهادفة إلى تقليل اعتماد أوروبا على الطاقة الروسية. أدركت بعد أربع سنوات من دعمها قوات النظام ومن تدخل إيران مباشرة وبالواسطة، أن لا دمشق ولا طهران أثبتتا القدرة على القيام بهذه المهمة.

لذلك جاء اندفاع الرئيس فلاديمير بوتين ليأخذ الأمر بقواته الخاصة. ولم يعد غامضاً أنه يسعى إلىبقاء النظام بصرف النظر عنمن يتولى السلطة. ويدفع بالاته العسكرية غير مبال بالتداعيات. لا مساومات. القوة وحدها تفتح الطرق العصبية على الدبلوماسية لفرض التسوية التي يرسمها. الواقع أن القرار الدولي الأخير 2254 تبني مقررات لقاء «فيينا 2» الذي طوى صفحة بيان «جنيف الأول». و«التنسيق» القائم بين موسكو وواشنطن يكاد يطوي مقررات المعارضة في الرياض ويتجاهل التوافق على «لائحة القوى الإرهابية» التي يتولى الأردن إعدادها بالتنسيق مع جميع المعنيين بالأزمة السورية.

في ضوء هذه الاستراتيجية الروسية لا يبدو أن لقاءات «جنيف 3» ستفضي إلى انفراجات. يكفي النظر إلى مواقف الأطراف الذين يشكلون «الهيئة العليا للمفاوضات» قبل النظر إلى اعترافات من اعتراضوا على غيابهم أو تغييبهم، خصوصاً «مجلس سورية الديمقراطية» الذي يضم حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي وقوى أخرى أشورية وسريانية وتيار «قمح» لهيثم مناع. هناك أكثر من ثلاثة وجهات نظر في «الهيئة» يعبر عنها كل من «الائتلاف الوطني»، و«هيئة التنسيق» و«تيار بناء الدولة»، والفصائل المقاتلة وضمنها «أحرار الشام»، و«جيش الإسلام» الذي لن ينتهي ويزول بمقتل قائدته.

ويمكن قراءة غياب المشتركات بين هذه القوى من مواقفها حيال المسيرة السياسية التي أقرها لقاءاً فيينا والقرار الدولي، وما قبل ذلك وبعده. ولن تكون موسكو بعيدة عن تعزيز خياراتها العسكرية، والدفع بالمعارضة السياسية والعسكرية التي يمكن احتواها من أجل إعادة تشكيل النظام الذي يعد بقاوئه مبرراً لاستمرار الوجود الروسي.

اللامبالاة التي ينهجها الرئيس بوتين حيال القوى الأخرى المعنية بالأزمة السورية لن تمر بسهولة. المعركة المفتوحة التي يخوضها ضد تركيا لن تريحه في سورية. صحيح أن مشروعها لإقامة منطقة آمنة شمال حلب وإدلب انتهت بإقامة منطقة عازلة جنوب تركيا باتت تحت مرمى صورايخ «اس 400» الروسية! وصحيح أن هروب الرئيس رجب طيب أردوغان نحو العراق أثار عاصفة في وجهه.

لكن الصحيح أيضاً أن سعي الرئيس الروسي إلى عزل أنقرة يعزز موقع غريمتها طهران. بالطبع هو يراعي الوجود الإيراني في بلاد الشام لأنه لم يستطع حتى الآن إعادة بناء قوة حقيقة ضاربة من الجيش النظامي يمكن أن تحل محل المليشيات الوافدة من خارج الحدود. هذه المراوغة لدواع استراتيجية معروفة لا تثير الرئيس التركي وحده. بل تثير قلق قوى عربية وقفت إلى جانب المعارضة السورية وسكتت على التدخل الروسي لاعتقادها بأنه خير أو أقل ضرراً من التغلغل الإيراني. لكن مواصلة موسكو ضرب «الجيش الحر» والفصائل التي ارتضت الحل السياسي تبدو إصراراً على بعث أزمات مع هذه القوى.

وتعزز نظرة كثirين إلى أن روسيا باتت في مواجهة مفتوحة مع الإسلام السنّي في المنطقة، في وقت لا شيء يضمن أن التسوية يمكن أن تفرض على السوريين من خارج كل هذه التضحيات. حتى سيد الكرملين نفسه يعرف أن لا جدوى من دعم النظام.

ولا يكفي هنا أن يعتمد الرئيس بوتين على «لامبالاة» مماثلة لنظريره الأميركي باراك أوباما حيال أزمة سوريا. الأخير يعتمد سياسة واضحة حيال التدخل العسكري الخارجي. خبر أكلاfe الباهظة التي ترتب على الحروب الاستباقية. وأعلن أكثر من مرة أن لا قدرة لبلاده على التدخل وممارسة القوة في كل أزمة إقليمية هنا أو هناك. لذلك لا يضيره أن ينوب عنه سيد الكرملين في دور «الشرطي الدولي». لأنه يعرف كما يعرف نظريره قدرة روسيا على التحمل اقتصادياً، مهما حاولت التقليل من حجم تكاليف تدخلها العسكري في بلاد الشام. لقد دفع بوتين ولا يزال يدفع غالياً ثمن عناده في أوكرانيا. كانت العقوبات ردأً على تجاهله مواقف أميركا وأوروبا. وضمه شبه جزيرة القرم وتحريكه مناطق الشرق الأوكراني لم يعدها ولن يعيدها إلى قلب كييف. وستظل هذه بقربها من الغرب تشكل تحدياً لاستراتيجيته واستنزافاً لمقدراته. ولن تكون حاله أفضل في سوريا. فلا شيء يضير واشنطن وهي ترى إليه يُستنزف في رمال المنطقة، ويتحول خصماً لدولـاً للعالم العربي والإسلامي. ومثلها شركاؤها الأوروبيون الذين بدلوـا ويبـدون من مواقفهم على وقع موجـات المـهاجرـين وإـرـهـاب «داعـش» المـتنـقل خـارـج «ـدـوـلـةـ الـخـلـافـةـ».

أن يرسم الرئيس بوتين صورة التسوية في سوريا ويفرضها بقوة طائراته وصواريـx ليس خياراً مضمـون النـتـائـجـ. لن يطول انتظـارـ الـلـاعـبـينـ الـآخـرـينـ وـصـبـرـهـمـ. مستـقـبـلـ بـلـادـ الشـامـ جـزـءـ لاـ يـنـجـزـأـ منـ مـسـتـقـبـلـ الإـقـلـيمـ بـرـمـتهـ. بلـ هيـ قـلـبـ الإـقـلـيمـ. وـلـيـسـ بـمـقـدـورـ مـوـسـكـوـ أـنـ تـحـدـدـ صـورـةـ الـمـنـطـقـةـ وـبـنـاءـ نـظـامـهـاـ وـحـدـهـاـ وـعـلـىـ هـوـىـ مـصـالـحـهـ فـقـطـ. لنـ يـدـعـهـاـ السـوـرـيـوـنـ قـبـلـ الـآخـرـينـ،ـ منـ أـمـيرـكـاـ إـلـىـ أـوـرـوـبـاـ وـدـوـلـ إـقـلـيمـيـةـ وـعـرـبـيـةـ لـاـ تـرـازـلـ تـنـتـظـرـ لـعـلـ وـعـسـىـ.ـ قـدـ لـاـ يـمـرـ وـقـتـ طـوـيلـ حـتـىـ يـنـهـارـ مـشـرـوـعـ بـوـتـيـنـ لـلـتـسـوـيـةـ،ـ كـمـ تـنـهـارـ طـموـحـاتـهـ فـيـ آـسـيـاـ الـوـسـطـيـ أـمـامـ زـحـفـ الصـيـنـ.ـ سـيـدـرـكـ عـنـدـهـاـ أـنـ تـرـكـيـاـ وـالـفـصـائـلـ إـسـلـامـيـةـ،ـ مـنـ «ـجـيـشـ إـلـلـاـمـ»ـ إـلـىـ «ـأـحـرـارـ الشـامـ»ـ وـغـيـرـهـمـاـ،ـ لـيـسـ المـشـكـلـةـ الـوـحـيـدـةـ فـيـ وـجـهـهـ.

كـفـ يـدـ تـرـكـيـاـ عـنـ سـوـرـيـةـ لـنـ يـغـيـبـهـاـ قـوـةـ رـاجـحةـ فـيـ إـقـلـيمـ.ـ وـقـتـ زـهـرـانـ عـلـوـشـ لـاـ يـقـضـيـ عـلـىـ الـفـصـائـلـ إـسـلـامـيـةـ.ـ الـمـوـاجـهـةـ مـفـتوـحـةـ عـلـىـ اـمـتدـادـ الـمـنـطـقـةـ،ـ وـالـمـيدـانـ الشـامـيـ يـخـتـصـرـهـاـ كـلـهـاـ،ـ فـهـلـ تـصـمـدـ مـوـسـكـوـ؟ـ أـوـ بـالـأـحـرـىـ هـلـ تـصـمـدـ سـوـرـيـةـ وـبـقـىـ مـنـهـاـ شـيـءـ لـلـصـرـاعـ عـلـيـهـ؟ـ

الحياة اللندنية

المصادر: